أحمد بن بلة و الفكر القومي الناصري و ملامح تجسيده في قيادة الدولة الجزائرية

د/سفيان لوصيف /جامعة محمد لمين دباغين /سطيف 2
sofianeloucif@yahoo.fr

الملخص:

يعالج المقال بالدراسة و التحلي شخصية أحمد بن بلة الرئيس الأول للجزائر المستقلة، و الذي تأثر إلى حد بعيد بفكر الرئيس المصري جمال عبد الناصر، و هذا منذ بدايات الثورة الجزائرية، فقد اعتبره بن بلة قائد مشروع الوحدة العربية، و عمل على التأسيس لفكره في بناء الدولة الجزائرية المستقلة، لاسيما مسألة التخلص من الإرث الاستعماري الفرنسي القائم أساسا على مشروع الفرنسة، و عمل على استعادة مقومات الشخصية الجزائرية خاصة مسألة التعريب، هذا الأخير سوف يعرف خلافا بين مختلف النخب السياسية و الثقافية.

Summary:

The article deals with the study and personalization of Ahmed Ben Bella, the first president of independent Algeria, which was greatly influenced by the thought of Egyptian President Gamal Abdel Nasser. Since the beginning of the Algerian revolution, Ben Bella has considered him the leader of the Arab unity project. The Algerian independent state, especially the issue of dispossession of the French colonial heritage based on

the French project, and worked to restore the characteristics of Algerian personality, especially the issue of Arabization, the latter will know the difference between different political and cultural elites.

مقدمة:

كان الرئيس أحمد بن بلة ناصري الفكر، و عروبي التوجه و الإيديولوجيا، اعتنق الفكر القومي العربي و ناضل من أجله منذ ثورة الجزائر ضد الفرنسيين، التي اعتبرها المخلصة من عبودية الاستعمار، و كان جمال عبد الناصر و مصر خير معين له، فاستقبل بالقاهرة و هناك تشبع بالعروبة أيام كانت مصر حامية لها، و حين قاد دولة الاستقلال في الجزائر رئيسا عكف أحمد بن بلة على تجسيد أفكاره، التي آمن بها رغم صعوبة المهام لحداثة الاستقلال و إرث الاحتلال الفرنسي الذي زاد عن قرن و ثلاثين سنة، نذكر منها فكرة عروبة الجزائر و تحقيقها على أرض الواقع من خلال تقليص هيمنة لغة المحتل الفرنسي التي سادت و عمت.

أولا: أحمد بن بلة: سيرة زعيم عربي

ولد أحمد بن بلة سنة 1916 في مدينة مغنية ولاية تلمسان غرب الجزائر، تلقى تعليمه الأول في مسقط رأسه، ثم واصل تعليمه في المرحلة الثانوية بتلمسان، و بعدها لم تسمح له سلطات الاحتلال الفرنسي بمواصلة التعليم، و خلال الحرب العالمية الثانية أجبر على التجنيد الإجباري في صفوف القوات الخاصة الفرنسية، و حتمت عليه الظروف أن يخوض المعارك القتالية في ساحة الحرب إلى جانب فرنسا و حلفائها، و قد أظهر شجاعة و بطولة في القتال بالجبهة الإيطالية مما دفع بالجنرال ديغول آنذاك منحه وسام الاستحقاق[1].

و بعد مجازر ماي 1945 التي ارتكبها الفرنسيون في حق الجزائريين التحق بالنضال الوطني، و انخرط في صفوف حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية، و خاض مع حزبه الانتخابات و انتخب نائبا لرئيس بلدية مغنية، و خلال تشكيل المنظمة الخاصة الجناح العسكري للحزب كان أحمد بن بلة مسؤولا في توعية و توجيه و تنظيم المناضلين الوطنيين القادرين على حمل السلاح في خلايا سرية، ثم تولى مسؤولية الإشراف على القطاع الوهراني في غرب الجزائر، و لكفاءته و خبرته العسكرية أصبح مسؤول المنظمة السرية على المستوى الوطني، فخطط و دبر و شارك مع رفاقه في عملية الاستيلاء على أموال البريد المركزي لمدينة وهران سنة 1949 التابع آنذاك للإدارة الاستعمارية، و بعد اكتشاف المنظمة الخاصة قبضت عليه السلطات الفرنسية، و حكم عليه بالسجن و عذب عذابا شديدا، و استطاع الفرار من السجن سنة 1952، و ربط الاتصالات بين قيادة و مناضلي الحزب عبر التراب الجزائري من جديد.

استقر في القاهرة و هناك عمل في مكتب لجنة تحرير المغرب العربي رفقة المغاربة في التنسيق و التشاور و العمل المشترك لتوحيد صف المقاومة المسلحة المغاربية ضد عدو واحد، لنيل أقطار المغرب العربي الثلاثة المغرب، الجزائر، تونس الاستقلال التام، و الانضمام إلى الجامعة العربية مع رفض فكرة الدخول في الاتحاد الفرنسي بأي شكل من أشكاله و فكرة السيادة المزدوجة، و عند اندلاع الثورة الجزائرية سنة 1954 عين منسقا عاما في الخارج لجلب الأسلحة[2].

في 22 أكتوبر 1956 اعتقل أحمد بن بلة و رفاقه محمد بوضياف، حسين آيت أحمد، محمد خيضر، بعد عملية قرصنة جوية لطائرة مغربية على متنها زعماء الثورة الجزائرية، كانت متجهة من المغرب نحو تونس، و أرغمت على النزول في مطار الجزائر، و تم سجن الزعماء الخمسة بسجون فرنسا إلى غاية إيقاف القتال 19 مارس 1962

حيث تم إطلاق سراحهم، و بعد إعلان استقلال الجزائر تولى أحمد بن بلة قيادة الدولة الفتية إلى غاية 19 جوان 1965[3].

ثانيا: أحمد بن بلة و الفكر القومي الناصري:

لما قامت الثورة المصرية سنة 1952 جعل منها جمال عبد الناصر من فكرة وطنية إلى فكرة قومية، و قبله كانت لا توجد في مصر إلا إشارات إلى العرب أو العروبة ككل، و إنما كانت الفكرة الراسخة في مناهج التعليم و في الصحافة و الإعلام و الشعر هي الشعارات الوطنية، و بعد أن جاء جمال عبد الناصر أنشأ إذاعة صوت العرب، و الصحافة العربية، و الفكر العربي، و الأمة العربية من المحيط إلى الخليج، فأجج الفكر العربي القومي، من خلال دعمه للحركات التحريرية العربية و دعم مختلف القضايا و الاهتمامات العربية.

يقر أحمد بن بلة أنه كان من المتأثرين بجمال عبد الناصر، الذي كان يحظى بسمعة جماهيرية عربية واسعة، و قد أيّد جمال عبد الناصر الثورة الجزائرية و كان يدعمها بالسلاح، و أعطى كل التسهيلات و الإمكانات لوفد جبهة التحرير الوطني الذين أقاموا في القاهرة، و منها شرعوا في التعريف بالثورة الجزائرية في العالم العربي و العالم.

في حصة شاهد على العصر مع أحمد منصور ذكر أحمد بن بلة أن مصر كانت من أوائل الدول العربية التي ساعدت الثورة الجزائرية في البداية، و عانت كثيرا من أجل ذلك، مبينا إلى تعرضها في عام 1956 للعدوان الثلاثي من قبل فرنسا و بريطانيا و إسرائيل، و تحدث عن علاقاته بالرئيس المصري آنذاك جمال عبد الناصر، مؤكدا أن الجزائر و مصر كانتا في ذلك الوقت "صوتا واحدا و اتجاها واحدا و تعاونا واحدا "، و غداة استقلال الجزائر لم يتنكر بن بلة لفضل عبد الناصر على الثورة الجزائرية فعزم التنسيق و العمل المشترك مع مصر في كل المستويات و خصوصا فيما يتعلق بالقضايا العربية الفاعلة و تدعيم حركات التحرر في العالم الثالث.

ثالثا: بن بلة و استعادة عروبة الجزائر

كانت مسألة التعريب تطرح و بشكل حاسم يدفع اللغة العربية إلى الأمام، فالنصوص السياسية موجودة، فبعد صدور ميثاق طرابلس سنة 1962 أكد دستور الجزائر سنة 1963 أنها اللغة الوطنية و الرسمية، لكن تجسيد ذلك في ظل وجود أطراف معارضة يعد أمرا ليس بالهين، هذا ما جعل موقف القيادة السياسية للبلاد تصر على التعريب، فتصريحات أحمد بن بلة ظلت لفترة كانت دائما تصف حالة الوضع المعرقل للتعريب مثل قوله[4]:« بخصوص التعريب أشير إلى أنه مشكل عويص، لم يغب عنا لأننا حاولنا أن نقدم حلا مؤقتا لأنه ليس بالسهل حله بين يوم و آخر ».

كان التعريب منذ الاستقلال محل خلاف بين المثقفين، بظهور توجهين أحدهما يؤمن بالتعريب و الآخر يدعو للازدواجية، و هذا ما فتح المجال للمفاضلة بين اللغتين و طرح مسألة أيهما أصلح، معرفة مطالب كل طرف و حججه تستلزم معرفة الخلفية التي ينطلق منها كل واحد و الأهداف التي يصبوا إليها، الفرق بين الفئتين هو طبيعة الثقافة التي يستلهم منها كل توجه أفكاره، فالمناصر للتعريب يتحكم في قواعد اللغة العربية و آدابها و يمثل نمط الثقافة العربية الإسلامية و له إحساس الانتماء إليها، أما المتأثر بالثقافة و اللغة الفرنسية يأخذ رموزه من العالم الغربي الذي يكون الدخول إليه باللغة الفرنسية[5].

تعتبر إشكالية التعريب أكثر صعوبة في التناول و التحليل لتعدد مكوناتها، فدعاة التعريب يعتبرون أن العربية تستمد شرعيتها في الجزائر من مصدرين اثنين الإسلام و كفاح التحرير الوطني، و كلاهما ضد الاستعمار ومنه فالفرنسية ببساطة لغة المستعمر، أما العربية عنصر أساسي من عناصر الكيان الحضاري للمجتمع الجزائري و شخصيته الوطنية، فهي كما عبر عنها العربي ولد خليفة بقوله[6]:« هي البداية و النهاية و إلى الأبد خزان تراثنا المشترك و الرابطة التي تجمع شعبنا، و بجملة واحدة هي نحن ضعفا و مهانة قوة و مهابة هي مرآة ما نحققه من تقدم ».

يستند دعاة التعريب إلى أفكار الفلاسفة و الباحثين في قضايا علم الاجتماع و التربية، الذين يرون أن اللغة الوطنية لغة الإبداع و أن ما هو وطني لا يمكن أن يكون إلا بها، يقول الفيلسوف الألماني فختة ' Ficht '[7]:« اللغة تؤثر في الشعب الذي يتحدث بها تأثيرا لا حد له يمتد إلى تفكيره و عواطفه و تصوراته و إلى أعماقه، و أن جميع تصرفاته تصبح مشروطة بهذا التأثير و متكيفة به »، و منه يمثل التعليم أهم قناة لتلقين اللغة الوطنية و تنشئة الأجيال على ذوق جمالها، و وسيلة لبث القيم الحضارية حتى تتثبت دعائمها كهوية وطنية و حججهم في ذلك أن:

– جعل الازدواجية في النظام التربوي لا ينتج إلا متعلما ضائعا بين التعريب و الفرنسة، فاللغة سواء لقنت باعتبارها لغة و حسب أو وسيلة لتدريس مواد لابد و أن تحمل ضمنيا مجتمعه الأصلي، ذلك أنها أكثر ارتباطا بالحوامل أو الخلفيات الإيديولوجية و الحضارية[8].

– اللغة ليست شكلا فقط بقدر ما أنها هي روح التربية، فقراءة النص الأدبي لا ينقل منه فقط جميل الأدب بل الفكر، و فهما لتجربة معينة في بلد له خصوصياته الثقافية و اللغوية حسب ما يقول مالك حداد[9]:« ليس هناك إلا توافق تقريبي بين فكرتنا العربية و ألفاظنا الفرنسية »، فاللغة مسألة وطنية نابعة من ذاتية الأمة لا تعار أو تستعار من الغير.

يدافع دعاة الازدواجية ببقاء الفرنسية في الجزائر كغنيمة حرب، كونها وسيلة تتيح للجزائر الانفتاح على العلوم الحديثة الموظفة في تنميتها الاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية[10]، و حسب دعاة هذا الاتجاه أن اللغة لا تمثل سوى أداة لنقل المعارف و المفاهيم بطريقة محايدة، و أن الفرنسية – هي الأجدر كلغة حية – تمثل منفذا للعصر الحديث و الحضارة الغربية[11]، بينما اللغة العربية متقادمة جدا لا تلائم أبدا الحاضر المبني على العلم و التقدم، و راجت هذه الأفكار في الأوساط التي أظهرت عداء للتعريب و الوقوف ضده مدافعين عن الفرنسية و حججهم في ذلك أن:

– الفرنسية لغة مرنة لها القدرة على التفاعل مع العلوم و التقنية.
– اللغة وسيلة للتعبير و الاتصال فالمهم هو نوعية الأفكار التي توفرها.
– الفرنسية لغة الفكر والعقل جاء في قول أحدهم[12]:« بتعليمي الفرنسي لا أستطيع التخلي بسهولة عن طريقتي الديكارتية في الاستنتاج، و هو ما يجعلني اختلف عن المتعلمين بالعربية ».

ظلت مسألة التعريب عالقة بتشبث كل طرف برأيه، و أضحى الموضوع يثير الحساسية المفرطة هذا ما جعل أسلوب تناوله يبتعد عن متطلبات البحث العلمي المنهجي ليصبح ضربا من الحماس العاطفي المنفعل، الذي لا ينجر عنه سوى إثارة المشاحنات و المناقشات الفارغة يقول عبد الله شريط[13]:« التعريب عندنا ظل سنوات طويلة محل نقاش بين الطرفين لا يفهم أحدهما الآخر، فكان شبيها بنقاش الصم البكم الذي لا يسمع بعضهم البعض، و كل واحد يرد على الآخر بما يتوهم من أفكار أو يظن، بحججهم العاطفية في الغالب لدى الطرفين ».

مثلت الناصرية المشروع القومي الأكثر واقعية في نظر بن بلة، حيث نجحت في بناء دولة و إطلاق مشروع تحديث واسع و بناء هوية قومية صلبة، و انعكس ذلك في ممارسات بن بلة على مستوى الفعل، فانطلق الفكر القومي العربي للجزائر و رئيسها، كشعور و انتماء و وعي بالمصالح القومية، في ظرف تميز بالتركة الاستعمارية الثقيلة.

فقد كانت وضعية اللغة العربية في العهد الفرنسي بين مد و جزر، يحاول المستعمر محاربتها عن طريق الفرنسة و يرد عليها الجزائريون بالمقاومة و الدفاع عنها، بتعليمها كرمز لثقافتهم و لغة دينهم، و لاشك أن الطرفين أدركا دور اللغة كوسيلة للتعبير عن الثقافة، و كانت المجابهة عنيفة بينهما انتهت بتضرر اللغة العربية، و بعد حرب تحريرية كان لابد أن تعود اللغة العربية إلى مجراها الطبيعي، كلغة ثقافة و دين و مدرسة لكن هل الأمر سهل بهذه البساطة ؟

سعت الدولة الجزائرية منذ سنة 1962 إلى استرجاع مقومات الثقافة الجزائرية، التي سحقها الاستعمار الفرنسي وفق مشروعه الثقافي الهادف إلى الفرنسة، فكانت غاية استعادة اللغة العربية و تمكينها في التعليم و الإدارة و الإعلام هدفا يطمح إلى تجسيده على أرض الواقع، لكن المهمة لم تكن سهلة في ظل وجود مصاعب و عراقيل تعيق عملية التعريب و تطبيقها، لاسيما في استمرار الإرث اللغوي الفرنسي في الجزائر، بوجود تيارات تدافع عن استمرار الفرنسية كلغة رسمية في الجزائر، مما أفرز سجالا حادا بين دعاة التعريب و الرافضون له، مما استلزم على الدولة سن قوانين و تشريعات خاصة بفرض اللغة العربية في شتى القطاعات.

رابعا: تكريس اللغة العربية في المواثيق الرسمية و الخطاب السياسي

- ميثاق طرابلس 1962:

انعقد ليحدد تصوراته للدولة المستقلة و منها المسألة الثقافية و قد أبرز الانتماء الوطني للثقافة، و جمعها بين الوعي الثوري و الحرص العلمي وذلك بإعطاء اللغة العربية مكانتها الحقيقية، و إعادة بناء التراث الوطني و محاربة الهيمنة الثقافية و التأثير الغربي، اللذان ساهما في تلقين الكثير من الجزائريين احتقارهم لغتهم و قيمهم الوطنية جاء فيه:[14] « استعادة الثقافة الوطنية و التعريب التدريجي للتعليم اعتمادا على أسس علمية، و هذه مهمة من أصعب مهام الثورة إذ تتطلب وسائل ثقافية عصرية و لا يمكن تحقيقها بالتسرع دون خطر التضحية بأجيال كاملة ».

دستور 1963:

اعتبر دستور 1963 و هو الأول في تاريخ الجزائر المستقلة اللغة العربية لغة رسمية في الجزائر جاء في المادة الخامسة منه ' إن اللغة العربية هي اللغة الوطنية و الرسمية للدولة '[15]، اختيار سياسي أساسي فهي محور و أساس سياستها اللغوية و الثقافية، فمنذ سنة 1962 أعربت الجزائر عن اندماجها في الرقعة الحضارية و الثقافية للأمة العربية و هذا

استمرار للنضالات الثورية، و الوسيلة لبلوغ الغاية تتمثل في وضع سياسة التعريب، و هي الإمكانية الوحيدة للجزائر للقضاء على آثار الاستعمار الثقافي و الدمار الناجمة عن سياسة الاستعمار.

ميثاق الجزائر 1964:

أشار ميثاق الجزائر الأول سنة 1964 إلى بعض المعالم التي يجب أن تتبعها القيادة السياسية آنذاك، و ذلك من أجل ترسيخ الهوية اللغوية و طريقة تحصينها في مختلف مناحي الحياة، و خصوصا التعليم و الإدارة اللذان يكونان أرضا خصبة لنشر أية لغة، بصفتها حاملا أمينا لعناصر كثيرة من عناصر الهوية الوطنية و قد تضمن بشأن اللغة العربية[16]:« دور الثقافة الجزائرية كثقافة قومية يتمثل بدرجة أولى في إعادة اللغة العربية بوصفها اللسان المعبر عن القيم الثقافية لبلادنا، كرامتها و فعاليتها كلغة حضارة تستعمل في إحياء و إعادة تقييم التراث الوطني و التعريف به ».

و لهذه دعا مؤتمر الجزائر إلى ضرورة تعميم اللغة العربية و ذلك بنهج الخطوات التالية:

- الإسراع في تعريب التعليم.
- تقوية الروابط لاسيما الثقافية مع العالم العربي، و ذلك يعني بصفة خاصة مضاعفة الوسائل الموضوعة تحت تصرف الهيئات المكلفة بإنشاء مثل هذه الروابط.
- القيام بخطوات توسيع ملحوظ لمجال الدراسات العربية في الجامعة[17].

صرح أحمد بن بلة عشية الاستقلال في تونس قائلا[18]:« نحن عرب، نحن عرب، نحن عرب » و تحدث في مناسبة أخرى مشيرا للصعوبات التي تنتابه يقول[19]:« بخصوص التعريب أشير إلى أنه مشكل عويص، لم يغب عنا لأننا حاولنا أن نقدم حلا مؤقتا لأنه ليس بالسهل حله بين يوم و آخر »، كثر حديث أحمد بن بلة عن التعريب و عن

ضرورته يقول[20]:« التعريب ضروري لأنه لا وجود للاشتراكية دون تعريب... لا مستقبل لهذه البلاد دون تعريب ».

بذل الرئيس بن بلة جهودا لمعالجة الوضع و تحديد التوجه اللغوي للبلاد، لكن ما أضعف جهوده الضغوط الممارسة عليه، نتيجة المغالطات التي كان يقدمها له المكتب السياسي للحزب أدت به أحيانا إلى تردده في تعريب التعليم، أما من حيث المبدأ فتصريحاته تؤكد تجذر الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر يقول:[21]« أننا إذا كنا لا نملك بشكل كامل اللغة العربية، فإن هذا يبعدنا في أن نحس أننا عرب في عمق قلوبنا... إن التعريب لا يمكنه أن يكون إلا نمط حياة و تفكير، و ليس هناك مستقبل لهذه البلاد إلا في التعريب ».

ما يتعلق بالقرارات الرسمية فإنه لم يصدر أي قرار باستثناء المرسوم 46 - 145، الذي صدر 22 ماي 1964 المتضمن إنشاء مدرسة عليا للترجمة بجامعة الجزائر[22]، و الغرض من هذا القرار هو تدعيم حركة التعريب عن طريق تكوين هيئة من المترجمين، يتمتعون بمستوى مرتفع في اللغة العربية من أجل استغلالهم في إقامة علاقات خارجية، و في الإرشاد و المصالح العمومية و لجان التسيير لدفع عجلة التعريب، فهذا المرسوم صدر بعد مرور سنتين من الاستقلال.

تأكيدا لهذا جاء في ميثاق طرابلس أن' استعادة الثقافة الوطنية و التعريب التدريجي للتعليم اعتمادا على أسس علمية، و هذه المهمة من أصعب مهام الثورة إذ تطلب وسائل ثقافية عصرية ولا يمكن تحقيقها بالتسرع دون خطر التضحية بأجيال كاملة '[23]، و إذا كان الاستعمار الفرنسي قد خرج بجنوده فثقافته بقيت صرح ديغول في مذكراته قائلا:[24]« و هل يعني أننا إذا تركناهم يحكمون أنفسهم يترتب التخلي عنهم، قطعا لا فالواجب يقتضي منا مساعدتهم، لأنهم يتكلمون لغتنا و يتقاسمون معنا ثقافتنا ».

اتخذت إستراتيجية ديغول طابعا منظما تجلت بوضوح في اتفاقيات إيفيان، ورد في فصل التعاون الثقافي أن يشجع كل بلد في أرضه دراسة اللغة و التاريخ الخاص بالبلد الآخر[25]، هذا البند في تطبيقه كفيل باستمرارية الثقافة الفرنسية، فلم يتوان الفرنسيون في إرسال البعثات التعليمية تحت غطاء التعاون الثقافي المتفق عليه، فتم إنشاء المكتب الجامعي و الثقافي لإدارة نحو ستين منشأة ثقافية و تعليمية منها أربع ثانويات.

أثناء المناقشات التي كانت تثار في المجلس التأسيسي سنة 1962 أثيرت أسئلة النواب عن لغة التعليم فرد أحدهم بقوله:[26]« أن التعليم المقدم بسخاء هو باللغة الفرنسية... و هذا المشكل خطيرا لا يجب معالجته بسطحية » استمر الجدال طويلا بين مختلف الفئات السياسية و الثقافية، و تجسد بوضوح سنة الاستقلال بين النواب في المجلس التأسيسي و في صفوف اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين، و كان الوصول إلى موقف واحد خلال الاجتماعات أمرا مستحيلا، و رغم تشكيل لجنة التعريب سنة 1964 لم تكن هناك مواقف صريحة عند المسؤولين تجاه المسألة بين الغموض أحيانا و التجاهل أحيانا أخرى، فالقرارات التي كانت تصدرها اللجنة تبقى حبرا على ورق يفسر محمد حربي ذلك بقوله[27]:« إن لامبالاة القادة من مسألة التعريب بعد سنة 1962 أصل الارتباكات، فمن دون شك لم تكن لديهم الإمكانيات لحلها، إلا أنه كان عليهم أن يطرحوها و يتخذوا إجراءات حتى لا يبقى المثقفون بالعربية الأقارب الفقراء ».

غداة الاستقلال كان هناك نقص مخيف في عدد المعلمين والأستاذة المعربين، وهذا راجع أساسا إلى سياسة الاستعمار التي لم تكن برامجها التعليمية تشتمل على العربية كمادة تدرس، ومنه لم يكن من المعلمين المعربين إلا النزر القليل فوقعت الحكومة سنة 1962 في حيرة من أمرها، أن تعيد للعربية مكانتها كلغة وطنية من جهة وتوفر الإطار المعرب من جهة أخرى[28]، أمام هذه العراقيل ما هي الإجراءات التي ستتبعها الدولة ؟

هل تركت الوضع الموروث على حاله أم أحدثت ثورة في التعريب ؟ إلى أي مدى استطاعت نصوص التعريب أن تتوافق مع الواقع ؟

التزمت الحكومة بميثاق طرابلس الذي أكد صعوبة التعريب والوصول إليه بطريقة تدريجية لصعوبة المهمة وخطرها على مستقبل الأجيال، إذ لم تعتمد على أسس علمية ومنهجية ومراعاة الظرف الذي يتميز بوجود أغلبية من المتعلمين بالفرنسية[29]، فاستبدال العربية بالفرنسية حينا ليس أمرا هينا، وعليه عملت وزارة التربية منذ أول موسم دراسي 1962- 1963 على إدخال العربية في جميع المستويات التعليمية من الابتدائي حتى العالي بحجم معين من الساعات، بلغت سبع ساعات في التعليم الابتدائي وخمس ساعات في التعليم المتوسط والثانوي، فرغم الوضع الصعب إلا أن العزم كان يحذو بعض الأطراف لتغيير المدرسة الجزائرية، وإضفاء الطابع الوطني عليها حيث تم توظيف 3452 معلم أسندت لهم مهمة تعليم العربية[30]، خاصة في المدرسة الابتدائية كقاعدة للتعليم ينطلق منها التعريب، لأن التجربة تثبت أن هذه المرحلة هي الأنسب لغرس قواعد اللغة وفنونها في ملكة الطفل العقلية فتترسخ وتصبح لغة تفكيره [31].

خلال موسم 1963- 1964 تقرر تعميم إجراء الموسم الماضي في المناطق التي لم يشملها فارتفع مجمل معلمي العربية إلى 4303 من أصل 26.582 [32]، تنم هذه الأرقام عن الفرق الشاسع بين عدد معلمي العربية و الفرنسية، وهذا لا يعني سيادة الازدواجية فقط بل الهيمنة المطلقة للفرنسية في التعليم، و أمام هذا الوضع أخذت بعض الأصوات من المثقفين ورجال التربية يطالبون بتعريب كامل للسنوات الأولى، مستدلين في ذلك بالمشاكل التربوية التي تنجر عن تعلم لغتين[33]، و هكذا تم في الدخول المدرسي الثالث 1964- 1965 تعريب السنة الأولى من التعليم الابتدائي تعريبا كاملا في سائر البرامج، و فيه تقرر تعريب مادة التاريخ في السنة السادسة ابتدائي و إلغاء تدريس اللغة اللاتينية و خلالها ارتفع عدد معلمي العربية إلى 10.961 [34].

كانت المواد الأدبية في مرحلة التعليم المتوسط تدرس بالعربية عدا الجغرافيا في حين المواد العلمية تدرس بالفرنسية، وقد أقيمت 15 مؤسسة معربة تماما وبعض الأقسام المعربة في المتوسطات المزدوجة اللغة، في حين أن التعليم الثانوي كان مغايرا للمرحلتين الابتدائية والمتوسط حيث كان يعاني من قلة الإطار المعرب، فالمستعمر الفرنسي لم يسمح للجزائريين مواصلة التعليم المعرب بقدر يمكنهم من ممارسته في التعليم الثانوي بعد الاستقلال، لأنهم لا يملكون شهادات تعليمية بمستوى هذه المرحلة، كما أنه لم ينشأ مدارس تكوينية في الجزائر لتخريج الأساتذة المعربين، فظلت تسيطر الفرنسية على معظم البرامج التعليمية فيه[35]، ونظرا لوجود عدد هائل من الطلاب الذين زاولوا تعليمهم في مدارس التعليم الحر بالعربية أنشأت ثانويات معربة[36] تضمن استكمال تعليمهم في مناطق مختلفة من الوطن[37].

- تعريب الإدارة:

باشرت الدولة المستقلة سياستها التعريبية بالعناصر التي تذكرها بواجبها في الحفاظ على الأصالة، و ربطت تلك السياسة بهدف يتمثل في إعداد لغة وطنية، لغة تؤدي أداء دقيقا في سائر وظائف اللغة العصرية و تنقل محتوياتها العصرية، ثم التشديد على اللغة الوطنية أي اللغة الرسمية الوحيدة، و تحديد اللغة العربية بهذا الشكل سيقودها إلى التشبه باللغة الفرنسية، باللغة التي يجب عليها أن تحل محلها في وظائفها و معجمها و انتشارها في المجتمع، فسيتمثل المشكل في جعل اللغة العربية تنقل مجموع المحتوى الثقافي الذي كانت اللغة الفرنسية تنقله سابقا.

أدركت القيادة الفتية التي تولت زمام الأمور في الجزائر بعد الاستقلال فظاعة تغييب اللغة العربية، فتقدم مجموعة من أعضاء المجلس التأسيسي بمشروع لفرض التعريب و جاء في مذكرتهم ما يلي[38]:« منذ تأسيس الحكومة الفتية واجتماع المجلس الوطني التأسيسي وقع الكلام كثيرا عن التعريب، إن الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري تريد

التعريب، لأن اللغة العربية هي اللغة الوطنية و مع ذلك ما تزال تعيش على الهامش كلغة أجنبية في وطنها ».

رغم ما بذل من جهود لمواجهة العراقيل فإن المشكل المتعلق بالإطار المعرب بقي مطروحا، حيث لم تعمل الجزائر على تطبيق قرارات مؤتمر المعلمين العرب المنعقد في بيروت سنة 1962، الذي حث الدول العربية على التعاون مع الجزائر و قد تقدمت كل من مصر و العراق و سوريا للمشاركة في فتح المعاهد على نفقتها الخاصة[39]، لكن وزارة التربية لم تول للأمر أهمية و اكتفت بالاعتماد على الممرنين رغم تدني مستواهم العلمي و التربوي، و من أجل تحسين المستوى التعليمي لجأت وزارة التربية إلى أسلوب التكوين المكثف للمعلم باللغة العربية، و هذا من خلال تنظيم فترات تكوين مدتها شهرا يلتحق بعدها المكون مباشرة بمجال عمله[40].

خاتمة:

ناضل الرئيس أحمد بن بلة من أجل فكر قومي عربي موحد من المحيط إلى الخليج، و كان وفيا مخلصا لعقيدته العروبية كثائر ضد المستعمر الفرنسي الذي احتل بلده، و كرئيس أول للجزائر المستقلة مخلدا كلمته ' نحن عرب، نحن عرب، نحن عرب '، فراح يجسد فكرته على أرض الواقع و في مختلف القطاعات التي كانت الفرنسية سائدة فيها، لاسيما التعليم و الإعلام و الثقافة، و ظل بن بلة مدافعا عن القضايا العربية في مختلف الهيئات و المحافل الدولية مثل فلسطين و لبنان و العراق، و غيرها من المواقف التي تقتضي الدعم و الحشد العربي، و سجل اسمه في تاريخ القومية العربية كأبرز روادها في المغرب العربي عامة و الجزائر خاصة.

الهوامش:

[1] محمد قنطاري: أحمد بن بلة محرر و منقذ الجزائر، جريدة الجمهورية، وهران.

[2] المرجع نفسه.

[3] المرجع نفسه.

[4]Ministère de l'orientation national: Les discours du président Benbella, ministère de l'orient- ation national, Alger: 1963, p.115.

[5] Khaouala Taleb Ibrahimi: : Les Algérienne et leurs langues, deuxième édition, El hikma, Alger:1992, p.76.

[6] محمد العربي ولد الخليفة: المهام الحضارية للمدرسة والجامعة الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص.234.

[7] مولود قاسم نايت بلقاسم: إنية وأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، دار البعث، قسنطينة، 1975، ص.420.

[8] محسن مصطفى: في المسألة التربوية نحو منظور سوسيولوجي منفتح، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2002، ص.76.

[9] عثمان شبوب: "من اللغة تبدأ ثورة التجديد" مجلة الأصالة، عدد خاص بالتعريب، مطبعة البعث، قسنطينة، 1973، ص.7.

[10] أحمد معوض نازلي: التعريب والقومية العربية في المغرب العربي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1987، ص.170.

[11] محمد العربي ولد خليفة: المرجع السابق، ص.98.

[12] صالح فيلالي:" إشكالية الثقافة في الجزائر المبادئ الأساسية والإيديولوجية الممارسة، الأزمة الجزائرية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999، ص ص.446، 447.

[13]Abdellah cheriet: Opinion sur la politique de l'enseignement et de l'arabisation, SNED, Alger: 1983, p.8.

[14] Front de libération nationale : Les textes fondamentaux de la révolution : Appel du 1 november 1954, plate forme de la

Soummam1956, texte du congrès de Tripoli1962, édition A.N.E.P, 2008, p p.106, 107.

[15] حزب جبهة التحرير الوطني: دستور 1963، المطبعة الوطنية الجزائرية، الجزائر، 1963، ص.07.

[16] حزب جبهة التحرير الوطني: ميثاق 1964، ص.43.

[17] المصدر نفسه، ص ص.43، 44.

[18] Ministère de l'orientation national: Les discours du président Benbella, ministère de l'orientation national, Alger, 1963, p.115.

[19] Ibid, p.117.

[20] Ibid, p.117.

[21] Ibid, p.117.

[22] الجريدة الرسمية: مرسوم رقم 64- 145 الصادر يوم 22 ماي 1964، المتضمن إنشاء المدرسة العليا للترجمة.

[23] Front de libération nationale: Op-cit, p.106.

[24] شارل ديغول: مذكرات الأمل، منشورات عويدات، بيروت، ص.55.

[25] محمد الطيب العلوي: التربية بين الأصالة والتغريب، منشورات دحلب، الجزائر، ص ص.185، 186.

[26] المرجع نفسه، ص ص.185، 186.

[27] محمد حربي: جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع، تعريب كميل قيصر داغر، ط 1، دار الكلمة للنشر، بيروت، 1983، ص.117.

[28] محمد مصايف: في الثورة والتعريب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر: 1973، ص.56.

[29] حزب جبهة التحرير الوطني: ملفات وثائقية، المصدر السابق، ص.45.

[30] عبد الرحمان سلامة: التعريب في الجزائر من خلال الوثائق الرسمية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص.73.

[31] مصطفى محسن: المرجع السابق، ص.123.

[32] Mahfoud Bennoune: Education culture et développement en Algérie, E.N.A.G, marinoor, Alger: 2000, p.229.

[33] وزارة التعليم الابتدائي والثانوي:" تكوين المعلمين في الجزائر منذ 1962 "، مجلة التكوين والتربية، ع 9، الجزائر، 1975 ، ص.390.

[34] الطاهر زرهوني: التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر: 1984، ص.44.

[35] المرجع نفسه، ص.72.

[36] عددها خمس وهي: ثانوية بن باديس بقسنطينة، وعباس لغرور بباتنة، و ثانويتي الثعالبية للبنات و ابن خلدون بالعاصمة، وثانوية وهران.

[37] وزارة التعليم الابتدائي والثانوي: المصدر السابق، ص.394.

[38] Abdellah Cheriet: Op-cit, p.34.

[39] عثمان سعدي: التعريب في الجزائر كفاح شعب ضد الهيمنة الفرانكفونية، دار الأمة للطباعة، الجزائر، 1993، ص ص.53، 54.

[40] Mahfoud Bennoune: Op-cit p.228.